الخريف... أجمل الفصول!

وائل كشك

«إن التربية الجيدة هي تلك التي لا تهزم الإنسان وتقهره.... بل تطلقه وتحرره».

طاغور

انتقل طالب إلى صفنا من مدرسة بعيدة..... كان هذا الطالب يقترف أخطاء إملائية ونحوية..... القواعد تثير حفيظته، لا يحب أية قاعدة، مغرم بالاستثناء والأخطاء الشائعة..... يكره قواعد اللغة العربية وقواعد المرور وآداب الطعام..... كلها قيود.. كان يقول. عند بدايات ذلك العام دخل معلم اللغة العربية الجديد وطلب منا كتابة موضوع إنشاء بعنوان «الربيع... أجمل الفصول»، كان هناك في الصف من يكره القواعد والقوالب فكتب «الخريف أجمل... الفصول» كان هذا ما كتب:

«مرحبا بالخريف، مرحبا بالأوراق التي تتساقط في تسامح وتواضع ورضى كامل على الأرض..... مرحبا بروح التأمل الهادئ تملأ الطبيعة في هذا الفصل..... إن هذه الأوراق المتساقطة أدت رسالتها ورحلت.... رحلت بدون ندم.... إنها تفسح الطريق لمواليد جديدة من مواليد الطبيعة. إن الخريف يذكرني بجميع الصفات التي أحبها وأتمنى أن أملكها... فالخريف هو التواضع والتسامح والبعد عن المظاهر.... الخريف هو الحقيقة الداخلية التي لا ترتدي ثيابًا تخطف الأبصار... انه الصمت المليء بالمعاني الكبيرة، والسكون الذي يضم بين جناحيه معظم الحقائق الأساسية في هذا العالم. الطبيعة في الخريف لا تنام ولا تموت ولكنها في الحقيقة تعود إلى ذاتها وتستعد للبداية من جديد.... والعودة إلى الذات هي أصعب رحلة في حياة الإنسان..... ولذلك كله فأنا أحب الخريف وتواضعه وأفضله على غرور الربيع وجماله.

كانت العادة أن يقرأ كل طالب موضوعه، سخر الطلاب منه عندما قرأ الموضوع ولكن المعلم كتب له تعليقاً في الصفحة المقابلة في دفتر الإنشاء جاء فيه:

.... ولكن يبقى خريفنا على الحافة بين شتاء أوروبي بارد وامتداد لصيف في هذه المنطقة الساخنة من العالم..... أما أيلول منه فهو شهر الأحزان المبكرة التي تبقى أسبابها ودوافعها غير واضحة تماماً، وفي غالب الأحيان تبدو غير متوقعة..... سحابات تحوم فوق النفس، ترخي ظلالاً خفيفة كأطياف أناس رحلوا..... وحين كتب وليام فولكنر عن مطر أيلول لم يخطر في باله إن الدم سيشارك في هذا المطر..... أيلول يا«.....» ينفرد عندنا بأنه متعدد الألوان، فقد سمي الأسود في زمن ما، والأحمر في مكان ما، مع أن الرحابنة جعلوه بلون الذهب عندما غنوا له قبل أن يحترق أورغ عاصي في حمراء الحرب ويتحول إلى فحم أسود يرشح لحنا حزينا..... ولكن يبقى أيلول مزاجه مهاجر يلوح من بعيد لصحبة العمر، وعلى الأقل بالنسبة لي كان إحساساً مبكراً بالوحدة..... إحساساً بخسارة شيء حميم وعزيز على القلب..... ومع ذلك يا عزيزي يبقى في خريفنا مساحة للتأمل والبدء من جديد.

إن الكثير منا يجد صعوبة في الأخذ بأكثر من وجهة نظر بعين الاعتبار، وهناك من يخلط بين الحقيقة العلمية وتفسير هذه الحقيقة أو يخلط بين معتقداته ووجهات نظر معينة، وأحيانا ترتقي وجهة نظر سائدة في المجتمع إلى حقيقة لا جدال فيها، والنتيجة إنسان غير مبدع، متلقٍ، متقبل، غير واثق بنفسه..... الخ.

يقول ألبرت اينشتاين (عدس، 1996) «إن النظر إلى القضية من زوايا مختلفة، يوجد حقائق مختلفة، وهذا بدوره يؤدي إلى تقدم حقيقي في حياة الناس».

إن الصورة التي نحملها عن المدرسة التي نريدها ونرغب فيها قد تلفها الضبابية أحيانا ويكتنفها الغموض. ولكن تبقى قناعتنا بأن المدرسة هي مكان حر لممارسة التفكير بكافة أشكاله ولتعدد زوايا الرؤى (حتى للفصل الواحد!!!). كم هو جميل أن يكون لكل طالب أو معلم الحق في أن يفكر بحرية دون ضغط أو إكراه، وليعتاد كل واحد فينا أن لا يحصر تفكيره في خط سير واحد لا يتعداه ولا يلتفت إلى غيره. ولتصبح حرية التفكير حقاً يمارسه صاحبه في أمن واطمئنان.

وائل كشك – باحث في مركز القطان

المراجع:

1- حقي، بديع (1984). روائع طاغور في الشعر والمسرح. الطبعة الخامسة، بيروت: دار العلم للملايين.

2- عدس، محمد عبد الرحيم (1997)، نهج جديد في التعلم والتعليم، عمان، الأردن: دار الفكر.